

الأزهر الشريف

منارة العلم والعرفان في العالم الاسلامي

للدكتور حسين الهمداني



حفلت البلاد الاسلامية منذ انبثق فجر الاسلام بدور العلم ومآهد العرفان في وقت كانت ظلمات الجهل تجثم فيه فوق ربوع العالم العربي . ومع أن هذه الدرر كانت تنم بطابع خاص هو الطابع الاسلامي فلها كانت تتوهم في نظامها واتجاهاتها الحرص على توفير أسباب العلمانية في نفوس طلاب العلم وتوثيق الصلة بينهم وبين أسانئهم واشاعة تلك الروح الجامعية التي يجب توافرها في مآهد العلم المليا مثل ما يشاهده المرء الآن في أعرق الجامعات العربية .

ويلوح أنه لم يكن ثمة مناص من أن تنفدو المساجد والجوامع مقرا لنشر المعرفة كما كانت وما زالت مصدراً لبث الهداية والارشاد في نفوس الناس في الوقت ذاته . ولم يكن هناك تمازج في اضطلاعها بالمهمتين ؛ فان الدين الاسلامي الذي يأمر بالتسامح والسواوة ويحث على طلب المعرفة ولو اقتضى الأمر الاقتراب في مشارق الأرض ومغاربها ما كان ليوجد خيراً من المساجد يجوها القدسي لفرس العلم والمعرفة في نفوس المسلمين ، بل إن اختيار المساجد لهذا الغرض يحمل في طياته الاقرار بقداسة العلم ووجوب تعلمه من حمة الأغراض الدنيوية والبعديه عن كل جو ينحرف به عن قدسيته .

وقد ظهر في الاسلام مآهد علمية عظيمة القدر رفيعة الاسم . وكان الحكام يتنافسون في انشائها ، فانشىء الأزهر في عام ٣٦١هـ (٩٧١ م) وانشئت الكلية النظامية في عام ٤٥٩هـ (١٠٦٦ م) وانشئت الصالحية في القدس عام ٥٨٣هـ (١١٨٧ م) . وكان الغرض من انشاء هذه المآهد هي غيرها باديء الأمر . وباستثناء الاستنصرية - هو تدريس المذاهب الدينية والدعوة لها ، فانشىء الأزهر لتدعيم المذهب الشيعي في مصر بعد فتحها على يد الفاطميين .

وانشئت النظامية هي والصلاحية لدعم المذهب الشافعي بينما انشئت الاستنصرية لتدريس المذاهب الأربعة وكان بها كاية لتدريس الطب وأخرى لتدريس الرياضيات واللغات . وقد اخفت هذه المآهد العظيمة واندرت وعفا عليها الدهر فيما عدا الأزهر الذي ظل راسخا كالطود بالرغم مما مر به من أحداث بل واضطهاد في بعض المصور . ولم يمرى أن المرء ليتساءل ماذا كان يصيب اللغة العربية وآدابها وما يتصل بهما من علوم ومعرفة لو أن الأزهر - أصابه ما أصاب غيره من مآهد ولم يصمد لاجوات طيلة هذه الأجيال ؟ لقد كان هذا الأزهر وما يزال - وأرجو أن يظل على ذلك أبد الدهر - دعاية العلوم والمعارف في العالم الاسلامي . وقد أراد الله بالأمة الاسلامية خيراً حين كلاً هذا الجامع بعنايته ورعايته وصانه من غوائل الدهر ومن الانهيار .

ولم يكن الأزهر بناء أو جدراناً لا حياة فيها . بل كان على الدوام فكرة نابضة وروحاً متسامية وحياة فكرية ومبادئ حية . بدأ جامعاً فانقلب جامعة لها خصائصها وتقاليدها وسمتها وطابعها ؛ وقد ظلت هذه التقاليد والخصائص والطابع والسمة تلازمه على مر المصور . وكان من خير هذه التقاليد أن الطالب يظل يتلقى العلم حتى إذا آانس في نفسه القدرة على التصدر للعلم أذاع ذلك بين زملائه وشيوخه فتمتد في ديوان الأزهر حلقة من العلماء النابهين يجلس الطالب في صدرها ويناقش نقاشاً حاداً في المسألة التي تدرسها وفي جميع المواد المتصلة بها ؛ فإذا أثبت الطالب كفاءة ممتازة منح حق التدريس . وهذا التقليد يذكروننا بما هو متبع في الجامعات العربية وفي مناقشة رسالات الدكتوراه فيها في عصرنا الحديث .

وإذا كان الأزهر قد صمد نيقاً وأنف عام للاحداث وظل راسخاً في أداء رسالته في دعم أركان الدين الاسلامي ونشر العلوم الاسلامية ، واستطاع أن يحتفظ بمكانته المرموقة كدعامة قوية للإسلام ومنارة لنشر العلم والعرفان ، فإن مثله يجب أن يحتذى في كافة الأمصار الاسلامية فليس في وسع سكان الباكستان أو غيرها من البلاد الاسلامية أن يفدوا بعضهم وقضيتهم ليتزودوا من منهل الأزهر الذي لا ينضب وينهلوا من موارده العذب ، على أن الباكستان وغيرها من البلاد الاسلامية لا تستطيع أن تترجم

خطاه ما لم يعد يده لموتها . والواقع أن رسالة الأزهر لا تقتصر ولا يجب أن تقتصر على مصر وحدها بل ورسائله أعم وأشمل . ومن حق البلاد الإسلامية أن تطالبه بأن يعد رسالته عبر البحار لا إلى البلاد الإسلامية فحسب بل وللبلاد غير الإسلامية أيضاً . ومن حسن الطالع أن لا يكون هذا هو رأينا وحدنا بل هو رأى الحكومة المصرية نفسها بدليل ما وافق عليه مجلس الوزراء في إحدى جلساته الأخيرة من فتح الاعتمادات لإنشاء مهدين إسلاميين في مدريد وطنجة .

وفي وسع الأزهر أن يساهم مساهمة أدبية ومادية في إنشاء معاهد العلوم الإسلامية والدينية في البلاد الإسلامية فيبث بملائه إلى هذه الأمصار التي ستقام بصدر رجب وتحلم منها مكانة الصدر والاعزاز يبثون فيها تلك الروح العقيمة والملمية العميقة التي انفرد الأزهر بها منذ حوالي عشرة قرون وبضمون برامج الدراسة في هذه المعاهد وفق النهج الذي مارسه الأزهر منذ إنشائه ويمثلون على نشر اللغة العربية ودعمها في البلاد الإسلامية غير العربية . ولسماعة علوية باشا مشروع في هذا الشأن يستطيع علماء الأزهر دراسته وتنفيذه كله أو بعضه .

أما بالنسبة للبلاد غير الإسلامية فإن واجب الأزهرية تنضيه - بوصفه دعامة العلوم الإسلامية ومثارة الدين والهدى - أن ينشئ المعاهد الإسلامية في عواصمها ومدنها الكبرى وأن يزودها بيمض زملائه الذين يتقنون اللغات حتى يكون في مقدورهم نشر العلوم الإسلامية في هذه البلاد . وإذا كانت بعض اللغيات الإسلامية قد احرزت توفيقاً في هذا المضمار فأحرى بالأزهر وهو المؤسسة التليدة المريقة أن يصيب نجاحاً عظيماً بما يتوافر لديه من اعتبارات وعوامل تكفل له التوفيق والنجاح في القيام برسائلته . ويستطيع الأزهر مثلاً أن ينشئ معاهد في لندن وبرلين وباريس وروما وواشنطن وغيرها من المدن الكبرى على غرار ما نراه من المعاهد الأجنبية التي تنشئها الدول الغربية بين ظهرائنا . ونعتقد أن مثل هذا العمل يستدعي إنشاء معهد خاص للغات الأجنبية في الأزهر نفسه يدرس فيه العلماء والطلاب تلك اللغات بتوسيع وتعمق في وسط ازهرى يكفل لهم تنقل الروح الأزهرية العالية في نفوسهم . ونود ونحن بصدد الكلام على تلك

الروح الأزهرية الفذة أن ننوه بيمض ما يجول في نفوس بعض العلماء من مخاوف بشأن اضمحلال هذه الروح بسبب تلك النظم الحديثة التي أدخلت في الأزهر مثل نظام الأمتحانات وتحديد المقررات وكثرة المواد الدراسية التي لا تتصل بالدراسات الإسلامية - حتى أن البعض يعتقد أن مستوى التحصيل في الأزهر قد انخفض انخفاضاً ملموساً بسبب انصراف الطلبة إلى احرز الأجازات التي تستبر سلاخاً للتوظيف دون الرغبة في التزود بالعلم لذاته والتعمق في المعرفة . وقد كان النظام الذي سلكه الأزهر خلال القرون الماضية نظاماً جامياً نجحاً وكانت الروح العلمية تسيطر على جوه ، فكانت صلة الطالب بمدرسته صلة وثيقة دعامتها العلم والرغبة في اعتراف مناهله . وحسبك أن تعلم أن الجامعات الغربية تنهياً الآن هذا التهدؤ لتأدية رسالتها . ولكن ما لبث النظام « الدرسي » الجديد الذي أدخل على الأزهر ان اضف من هذه الرابطة العلمية بين الطالب واستاذة . ثم أن هذا النظام يعمل على شحن ذهن الطالب بعلوم لا طائل نحتها ولا يدع له وقتاً ولا ميلاً للتعمق في نوع معين من المعرفة الإسلامية تعمقاً من شأنه أن يخفق لنا علماء من طراز الشيخ محمد عبده والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ المراغى واضرابهم من جهابذة العلماء الذين يفخر العالم الإسلامي بهم . والحق أن الذوات لأمثال هؤلاء العلماء موجودة فإن الطلبة الأزهريين ما زالوا يتسمون بالروح العلمية العميقة . وقد علمت من أحد القاعين على إدارة المعهد البريطاني في القاهرة أنه وجد في الطلبة الأزهريين الذين يتلقون اللغة الإنجليزية في المعهد المذكور استعداداً وادراكاً وتعمقاً وغيره واقبالاً على العلم بما هو جدير بطلبة هذه الجامعة المريقة . ونعتقد أن خير ما يمكن أن يفعله الأزهر هو أن يعمل جاهداً للمودة لذلك الجو الملى البحث الذي عرف به وأن يقضى على نظام الأمتحانات أو يعد له بحيث يتصرف الطلاب العلم وحده دون النظر للاجازات العلمية كهدف يمين عليهم تحقيقه للحصول على الوظائف .

وإودنا لو عنى رجال الأزهر الأعلام الألميون بأمر جدير بسايتهم وهو تلميم الفتيات ، فالشاهد أن الأسر الإسلامية كثيراً ما تدخل فتياتها في المعاهد الأجنبية التبشيرية ، واحتنا نجد مبرراً لحرمان الفتيات المسلمات من الثقافة الدينية الإسلامية ولا من